الطبعة الثانية
2015م - 1436هـ

مغامرات شارلوك هولمز

A Scandal in Bohemia

فضيحة في بوهيميا

تأليف: آرثر كونان دويل
ترجمة: سليمان حسون

أجيال الغد
سورية - دمشق - هاتف: 2256733 / 2262422 11 00963
ص.ب: 31453 - agyalalgadsyr@gmail.com
أشرف على التنفيذ الفني والطباعي دار الحافظ
daralhafez.net

1

مغامرات شارلوك هولمز

A Scandal in Bohemia

فضيحة في بوهيميا

تأليف: آرثر كونان دويل

نشرت للمرة الأولى في مجلة ستراند
تموز 1891

ترجمة: سليمان حسون

مراجعة: لينا حجازي

مُقدِّمةٌ

تفوَّقت شخصية شارلوك هولمز على شهرة مخترعها سير آرثر كونان دويل وتجاوزت شهرتها ليس فقط لندن والجزيرة البريطانية، بل بلغت أقاصي العالم مع ترجمة أعمال ومغامرات هولمز إلى كل لغات العالم تقريباً. فلم يعد أحد من الشَّبان أو الشَّابات إلا ويعرف من هو ذلك المحقق اللامع الذّكاء الذي يعير انتباهاً إلى أدق التَّفاصيل عندما يضع قضية ما تحت مجهر فحصه الدَّقيق. ومن منا لا يذكر براعة هولمز في فك طلاسم أعقد الألغاز وأشدها غموضاً بطريقة تحليله المنطقية الشَّهيرة. تعتبر شخصية هولمز غير الحقيقية طبعاً واحدةً من أكثر الشَّخصيات تأثيراً في القراء خلال القرن العشرين نظراً لمخاطبتها عناصر أساسية في شخصية أي إنسان لتحفيز قدراته العقلية، وتفكيره من أجل الوصول إلى حل كل لغز اشتركت فيه. وكأنَّها (أي شخصية هولمز) كانت تحث القارئ دوماً وتحفزه للوصول إلى الحقيقة، أو حل اللّغز

المطـروح بشـكلٍ يجعـل القـارئ يضطـر لاسـتخدام كل ملكاته الفكريَّـة والعقليـة للوصـول مـع هولمـز وواطسـون إلى حقيقـة الأمـر، أو حتَّـى أن يسـبقهما في التَّوصـل للحقيقـة. الطَّريـف في شـخصية هولمـز أنَّها وعـلى الرغم من أنَّهـا تقدِّم لنا شـخصاً من لنـدن في نهايـة القـرن التَّاسـع عـشر إلا أنَّهـا مـن خـلال طريقة تعاملهـا مع مـا حولها ومن حولهـا تبدو شـخصية أكثر معاصرة وكأنَّ كونـان دويـل نجـح بتحويلها إلى شـخصية خـارج إطار زمان محدد.

الأهـم من شـخصية هولمـز التي تتسـيَّد كل قصـص كونان دويـل هـي شـخصيَّة كاتبهـا التـي تشي بشـخص عـاش حياته كتجربـةٍ عظيمـةٍ تمكَّـن إلى أقـصى حـد في تصويرهـا مـن خلال شـخصية هولمـز، أحيانـاً وشـخصية د. واطسـون بصـورةٍ أكبر وأكثـر جـلاء. كـما تمكّـن الفنـان سـيدني باجيـت مـن ابتـداع صـورة نمطيـة محـدَّدة ومشـوِّقة للسـيد هولمـز في أذهاننـا، مـع مواكبـة قصـص كونـان دويل برسـومات جميلة جعلـت صورة هولمـز المرتـدي لقبعتـه المميـزة. وغليونـه الجميـل، صـورة لا تمحى من أذهاننا.

آرثر كونان دويل
مؤلف شخصيَّة «شارلوك هولمز»

ولـد الطبيـب والروائـي البريطاني السـير آرثر كونـان دويل في أدنـبرة باسـكتلندا سـنة 1859، واشـتهرت الشَّـخصية التي ابتدعهـا «شـارلوك هولمز» لرجـل التَّحـري الذَّكي القـادر على فـك ألغـاز الجرائـم، معتمـداً عـلى امكاناتـه الذِّهنيـة وقـوة الملاحظـة، واتبـاع طريقـة الملاحظـة والتَّحليـل والاسـتنتاج بالاعتـماد عـلى العلـم والمنطـق، هذه الشَّـخصية التـي أصبحت أكثر شهرة من مبتدعها.

وقـد مُثلـت العديـد مـن رواياتـه وقصصـه، وتحوَّلـت إلى أفـلام سـينمائية وأفـلام كارتونية. وقـد هجر السـير آرثـر دويل مهنـة الطّـب بعد أن مارسـها ثـماني سـنوات، واتَّجـه إلى الأدب، واسـتطاع أن يبـدع فيـه. بـدأ حياته الأدبيـة سـنة 1887 بكتابة القصـص القصـيرة للمجلات بهدف زيـادة دخله. يقـول النَّاقد كريسـتوفر مـورلي عن شـارلوك هولمـز: لم يحدث أبـداً أن نالت شـخصيَّة روائيَّـة هـذا الحـظ مـن القـدرة عـلى امتـاع القـرَّاء والالتصـاق بهـم بمثـل مـا نالـت شـخصية شـارلوك هولمـز. فالسـير آرثر دويـل بعد أن مـارس مهنة الطّـب في عيادته التي لم يكـن يزورهـا إلا النُّـزر اليسـير مـن المـرضى، كان يجـد أوقاتـاً

كبيرة من الفراغ، شغلها بكتابة القصص القصيرة، والتي لم تنل حظاً من النَّجاح في البداية.

إلا أنَّه وبعد نشر روايته الأولى عن شارلوك هولمز سنة 1887 أخذ نجمه في الصّعود. وبلغت مجموع القصص والرِّوايات التي كتبها السير آرثر دويل وظهرت فيها شخصية شارلوك هولمز حوالي 60 عملاً، جُلَّها من القصص القصيرة ، حتَّى أصبح السير آرثر دويل من أكثر كتَّاب القصَّة القصيرة دخلاً في عصره.

ونظراً لجهوده في دعم الحكومة البريطانية في حرب البوير «1899 - 1902» رقِّيَ إلى رتبة فارس سنة 1902.

شارلوك هولمز

شخصيَّة خياليَّة لمحقِّق من أواخر القرن التَّاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ابتكرها الكاتب والطَّبيب الاسكتلندي سير آرثر كونان دويل، ظهرت الشَّخصية لأول مرة في 1887، واشتهرت الشَّخصية بمهارتها الشَّديدة في استخدام المنطق والمراقبة لحل القضايا، وقد يكون هو أشهر محقِّق خيالي في العالم، وهو بالفعل أحد أكثر الشَّخصيَّات الأدبيَّة المعروفة بشكلٍ عالمي.

كتب كونان دويل أربع روايات، وستاً وخمسين قصَّة

قصيرة من بطولة هولمز، رويت جميعها من قبل صديقه الحميم وكاتب سيرته دكتور جون هـ. واطسون، باستثناء قصَّتين رواهما هولمز بنفسه، واثنتين رويتا بضمير الغائب.

وصف شارلوك هولمز نفسه بأنَّه محقِّقٌ استشاري خبير، يتم استدعاؤه لحل القضايا التي يثبُت أنَّها صعبة الحل جدّاً على المحققين الرَّسميين (النَّمطيين). وتُخبر القصص أنَّه كان قادراً في العديد من المناسبات على حل القضايا بدون مُغادرة بيته، دون أن تهتم القصص بتقديم الكثير من هذه القضايا الصَّغيرة، مُركِزَةً على القضايا المشوِّقة التي تتطلَّب منه القيام بتحريك ساقيه فعلاً. يتخصَّص هولمز في حل القضايا الغريبة مستخدماً قواه الاستثنائية في المراقبة والتَّحليل المنطقي.

يُصوَّر هولمز بشكلٍ دائم في الوسائط الإعلامية المختلفة مرتدياً قبعة صائد الأيائل وعباءته، مُدخناً غليوناً، وممسكاً بعدسةٍ مكبرة. ويوصف هولمز بأنَّه سيدٌ إنجليزي من الطِّراز الفيكتوري، طويلٌ ورشيقٌ، له عينان حادَّتان دقيقتان، وأنف معقوف. بالرُّغم من قامته النَّحيلة فإنَّ قدراته البدنيَّة عالية. هو ملاكمٌ ومبارزٌ ماهرٌ، وعادة ما يتغلَّب على خصومه في المرات القليلة نسبيَّاً التي اضطر فيها للاشتباك جسديَّاً. وفي مغامرة إكليل العقيق يقول هولمز أنَّه: (يمتلك قوة استثنائية في أصابعه). أمَّا في مغامرة المنزل الفارغ فيذكر أنَّه: (يمتلك

القليـل مـن المعرفة حول المصارعـة اليابانيـة). كان يعيش هولمز في لندن شارع بيكر عنوان 221 B.

في أوَّل قصصه، دراسـة بالقرمـزي، قُدِمَت بعض المعلومات عـن خلفيـة هولمز. قُـدِم في 4 آذار 1881 على أنَّـه طالب كيمياء مسـتقل، لـه مجموعةٌ واسـعةٌ من الاهتمامـات الجانبيـة، وتقريباً؛ فـإنَّ كل هـذه الاهتمامـات تصـب في مجـرى مسـاعدته ليصبـح خارقـاً في حل الجرائـم. في مغامرة أخرى مبكِّـرة بعنوان مغامرة غلوريـا سـكوت، تتضح الأسـباب التي دعت هولـمز إلى العمل كمحقـق خاص؛ امتـداح والد زميلـه في الكلية الشَّـديد لمواهبه وقدراته الاستنتاجيَّة.

في مغامـرة المترجـم الإغريقي، يقول هولـمز: أنَّ جدَّته كانت شـقيقة الرَّسـام الفرنـسي فيرنـو. وفي دراسـة بالقرمـزي، يضـع دكتور واطسون تقييماً لمهارات شارلوك:

ويعتبر شـارلوك هولـمز أيضاً مُحلِّل شـفرات كـفء، ويقول لواطسـون: أنـا متآلـف مـع كل أشـكال الكتابة السريَّة بشـكل جيـد، وأنا نفـسي مؤلف كتـاب ثانوي حول الموضـوع، حللت فيـه مائـة وسـتين شـفرة منفصلـة. حُلت إحـدى الشَّـفرات في مغامـرة الرِّجـال الرَّاقصـين، التـي اسـتخدمت سلسـلة مـن الأشكال الأوليَّة.

كـما أظهـر هولـمز نفسـه كأسـتاذ في التَّنكـر بعـد أن تنكـر في

أشكال مختلفة خلال مغامرات: بحار (علامة الأربعة) وسائس خيل، ورجل دين (فضيحة في بوهيميا)، ومدمن أفيون (الرَّجل ذو الشفة المقلوبة)، ومتبطل عادي (مغامرة إكليل العقيق)، وكاهن إيطالي عجوز (مغامرة المشكلة الأخيرة)، وبائع كتب (مغامرة البيت الفارغ)، وعامل تمديدات صحيَّة أو سبَّاك (مغامرة تشارلز أغسطس ميلفيرتون)، ورجل محتضر (مغامرة المحقِّق المحتضر)، وأخيراً متسول كلب آل باسكرفيل.

ويمكن اعتبار هولمز رائداً في علم الأدلَّة الجنائيَّة الحديث لاستخدامه هذا العلم في قضاياه، مثل: تعرفه على الفروقات بين أنواع الآلات الكاتبة لفضح الاحتيال (قضية هوية). وتوصله إلى جريمة باكتشافه قطعتين من البقايا البشرية (مغامرة صندوق الورق). وملاحظته لبقايا بارود على الضحية (مغامرة ميدان ريغاتي). وملاحظته نوع الرَّصاص المستخدَم في جريمتين (مغامرة البيت الفارغ). واستخدامه بصمة الأصابع لتحرير رجل بريء (مغامرة باني نوروود).

عاش شارلوك هولمز تاريخياً، في B 221 شارع بيكر، لندن منذ 1881، حيث أمضى العديد من سنواته المهنية مع صديقه الحميم دكتور واطسون، الذي تشارك الشقة معه قبل زواج واطسون في 1890. وكانت تشرف على صيانة

الشقة والاهتمام بها السيدة مارثا هدسون، مالكة البناية. وقد وصف دويل الحي الذي يعيشان فيه بدقة، حتَّى أنَّ الكثيرين من القرَّاء زاروا شارع بيكر للبحث عن العنوان الخيالي.

ومن أبرز الشَّخصيات التي ظهرت في حياة شارلوك هولمز:

د. واطسون

واطسون؛ صديق هولمز الحميم، وكاتب سيرته الذَّاتيَّة، كما أنَّه يقوم بتسجيل معظم قضايا هولمز. وفي القصص الأخيرة ينتقد هولمز واطسون دائماً لأنَّه يروي القصص بشكلٍ مثيرٍ، مبتعداً عن الطَّريقة الموضوعية والمفصَّلة للتقارير التي تركز على ما يُسميه هولمز (العلم المحض). واطسون، بالمقابل، له سمعة مبررة بعض الشَّيء كرجل يميل إلى النّساء، يتكلَّم بحب عن بعض النِّساء، وفي بعض القصص الطَّويلة كثيراً ما يركِّز على جمال امرأة معيَّنة، وفي النِّهاية فإنَّه يتزوَّج واحدة بالفعل. ماري مورستان من رواية علامة الأربعة.

جيمس موريارتي
«عدو شارلوك هولمز الأزلي»

البروفيسور جيمس موريارتي (نابليون الجريمة)، هو في

الأساس معلِّم الرياضيات الخصوصي لهولمز، كما أشير لذلك أيضاً في عمل بارينغ-غولد. وهو المشكلة الأساسية في العديد من قضايا شارلوك هولمز.

سقط مع هولمز أثناء صراعهما في شلالات راينباخ. ونوى كونان دويل أن تكون (المشكلة النِّهائية) التي حدث فيها ذلك، هي آخر قصة يكتبها عن هولمز، لكنَّ الرَّسائل الكثيرة التي استلمها مطالبةً بعودة هولمز أقنعته بالاستمرار في كتابة القصص. وفي (مغامرة المنزل الفارغ) أخبر كونان دويل أنَّ موريارتي وحده من سقط في الشَّلال، وأنَّ هولمز جعل العالم يعتقد بأنَّه مات أيضاً ليراوغ أتباع موريارتي.

آيرين أدلر

المرأة الوحيدة التي أبدى هولمز اهتماماً بها. وتبعاً لما قاله واطسون، فإنَّ هولمز كان يشير إليها دائماً باعتبارها (المرأة). بالرُّغم من أنَّ هولمز نفسه لم يستخدم هذا المصطلح، على أنَّه ذكر اسمها الفعلي عدَّة مرات في قضايا أخرى. وهي أيضاً واحدة من النِّساء القلائل اللائي ذُكرن في قصص شارلوك هولمز، بالرُّغم من أنَّها ظهرت فقط في قصة فضيحة في بوهيميا، إلا أنَّها غالباً ما اعتبرت المرأة الوحيدة التي كسرت تحفُّظ هولمز. وهي المرأة الوحيدة التي هزمت هولمز في لغز.

مايكروفت هولمز

الشَّقيق الأكبر لهولمز، الذي يمتلك قوى تحليلية تفوق حتَّى تلك التي يتمتَّع بها شقيقه الأصغر. وبالرُّغم من ذلك فإنَّ مايكروفت غير قادر على أداء عمل تحرٍ مشابه لعمل شارلوك، لأنَّه لا ينوي بذل أي جهد جسدي ضروري لحل القضايا.

ليس لديه طموح أو طاقة، ولن يتزحزح عن هذا حتَّى ليثبت حلوله الخاصَّة، ويُفضِل أن يُعتبر حله خاطئاً على أن يتحمَّل عناء إثبات صحة كلامه. كثيراً ما أخذت مُعضلاتي إليه، وحصلت منه على شروحات ثبت صحتها فيما بعد، غير أنَّه كان دائماً غير قادر على حل النّقاط العمليَّة.

فضيحة في بوهيميا

بالنّسبة لشارلوك هولمز كانت هي دوماً «المرأة» ولم أسمعه يذكرها بأي لقبٍ آخر إلا نادراً، فقد كانت بالنّسبة له المرأة التي تتفوّق على كل النِّساء. لكن ذلك لم يكن يعني أنّه يكن مشاعر الحب لآيرين آدلر، فعقله البارد الذي ينتبه لكل التّفاصيل يَنفُر من العواطف والمشاعر وتحديداً من شعور الحب، رغم أنّه متوازن نفسياً بشكلٍ يثير الإعجاب. وحسبما أعتقد، كان أعظم آلة استنتاج وتحليل منطقي أنتجتها البشرية، دون أن يكون له مكانٌ بين العشّاق، فهو لم يكن يتحدّث عن المشاعر الرّقيقة إلا بنوعٍ من السخرية والتهكُّم.

قد تكون مثل هذه المشاعر جيدة ونافعة للباحث المراقب لأنّها تساعده على سبر أغوار الإنسان ومعرفة دوافعه، لكنَّها تجعل كل النّتائج المنطقية لصاحب العقل الممنهج عرضة للشّك، وهو ذلك الشّخص الذي إذا وجد حبة رمل في

واحـدةٍ من آلاته الحسّاسـة، أو وجد خدشـاً في إحدى عدسـاته لن ينزعج بمقدار انزعاجه من عاطفةٍ قويّةٍ تجتاح روحه!

بالرُّغـم مـن كل مـا سـبق، لم يعجـب شـارلوك هولـمز بـأي امـرأةٍ في حياتـه سـوى واحـدة؛ هـي آيريـن آدلـر ذات الذِّكرى الغامضة.



لقد أدّى زواجي إلى ابتعادي عن هولمز بحيث لم أره في الآونة الأخيرة إلا لماماً، فالسعادة الغامرة بكوني سيد منزلي الخاص واهتماماتي المنزلية الجديدة استهلكت كل وقتي، فيما بقي هولمز، الذي لا يُحب هذه الأشكال الاجتماعيّة، في منزلنا القديم في شارع بيكر، غارقاً بين كتبه ودراساته، يقضي وقته بين الخمول تارةً والنّشاط المفرط تارةً أخرى.

وكعادته، كان لا يزال مهتماً كثيراً بدراسة علم الجريمة وتوظيف قدراته غير العادية، إضافةً لقوة ملاحظته في محاولة فك طلاسم القضايا الغامضة، التي اعتبرتْها الشرطة الرّسمية قضايا ميؤوس منها. وكنتُ أسمع بين الحين والآخر بعض الروايات الغامضة عن أفعاله. فقد سمعت عن استدعائه إلى أوديسيا في قضية مقتل تريبوف، وعن حلِّه لقضية الأخوة آتكينسون الغريبة في ترينكومالي، وأخيراً سمعتُ بالمهمّة التي أتمّها بنجاح لصالح العائلة المالكة في هولندا. إلا أنّني لم أسمع شيئاً آخر عن صديقي باستثناء هذه القضايا التي قرأتُ عنها في الصحف كالآخرين.

في ليلة العشرين من شهر آذار 1888، عرجتُ على شارع بيكر بعد زيارة أحد المرضى، وحين مررتُ بالباب المألوف لمنزلي السابق المشترك مع هولمز، ذلك المنزل المرتبط بذاكرتي وما كان يحفل به من نشاط لحل ألغاز الجرائم، شعرت

بحنـينٍ كبـيرٍ لرؤية شـارلوك هولمز مـرَّة أخرى وكذلـك لرؤيته وهو يستخدم قدراته غير العاديّة.

كانـت غرفتـه مضـاءة ورأيـت خيالـه يـذرع الغرفـة ذهابـاً وإيّابـاً خلف السِّـتارة واضعـاً يديه خلف ظهـره كالمعتاد، ولأنِّي أعـرف طبعه فقـد كان هناك تفسـيرٌ واحدٌ لهـذه التَّصرفات. إنّه يعمل على قضيَّةٍ جديدةٍ.

قرعـت الجـرس ففتحـت لي صاحبـة المنـزل وقادتنـي إلى غرفتـي القديمـة. لم يستقبلني هولـمز بحـرارةٍ، فهـو نـادراً مـا يُظهِـر مشـاعره، لكنّـه بـدا سـعيداً لرؤيتـي كـما أعتقـد، حيـث أشـار لي بالجلوس عـلى كـرسي دون أن يتكلَّـم رغـم الـود في عينيه. بعد ذلك وقف أمام النّار وبدء يتفحَّصني بعينيه.

وعلّـق قائـلاً: إنّ الـزّواج يناسـبك يـا واطسـون، يبـدو أنّ وزنَـكَ قـد زاد بمقدار ثـلاث كيلو غرامـات وربـع الكيلو منذ رأيتك آخر مرّة.

أجبته قائلاً: بل ثلاثة فقط.

- حقـاً؟ أظـن أنّ وزنـك زاد أكثـر مـن ذلـك بقليـل، قليلاً جـدّاً كـما أتوقع يـا واطسـون، كـما ألاحظ أنّـكَ عـدتَ للعمل مُجدَّداً. أنت لم تخبرني أنّكَ تريد العودة للعمل.

- فكيف عرفت إذن؟



- لقد رأيت ذلك؛ لقد استنتجتُه بنفس الطّريقة التي عرفتُ بها أنّك تعرضتَ مؤخراً لبللٍ شديدٍ وأنَّ خادمتك متسرِّعة خرقاء.

فقلت له عزيزي هولمز، هذا حقاً كثير! لو كنت تعيش قبل قرون لكانوا أعدموك حرقاً بالتّأكيد! إنّها الحقيقة لقد

كنتُ أتمشّى في الريف الخميس الماضي وعدتُ إلى المنزل بحالةٍ مُزرية، لكني لا يمكن أن أتخيّل كيف توصّلتَ لذلك، خاصّةً بعد أن استبدلتُ ملابسي! أمّا بالنِّسبة لماري جين فهي غير قابلة للتّغيير، وقد أنذرَتها زوجتي بالطّرد... رغم أنّي لم أعرف كيف توصلتَ إلى هذا أيضاً!

ابتسم بصمتٍ وهو يفرك يديه وقال: الأمر بغاية البساطة يا عزيزي، فعيناي لاحظتا أنّ جلد الجزء الدّاخلي من فردة حذائك اليسرى، المكان الذي يتعرّض لنار المدفأة مباشرةً، عليه ستة خدوش متوازية تقريباً. من الواضح أنّ من تسبّب بها كان يقشط بإهمالٍ شديدٍ حواف النّعل لكي يزيل الوحل الجاف العالق بالحذاء. هل عرفتَ كيف توصّلتَ لاستنتاجي الآن؟ وبخصوص العيادة، فقد عرفتُ على الفور لأنّ رائحة المطهِّر تفوح منكَ، وسبّابة يدُكَ اليمنى سوداء نتيجة استخدام نترات الفضّة. كما أنّ ساعتكِ الطبيَّة مختفية تحت الجانب الأيمن لقُبعتك الرّسمية. سأكون غبياً لو لم أعرف أنّك تمارس الطّب بنشاط.

لم أتمكّن من كبت ضحكتي لسهولة شرح طريقة توصله إلى الاستنتاج، وعلّقتُ بالقول: تبدو الأمور دوماً غايةً في البساطة عندما أستمع لحججكَ وكأنّي أستطيع التّوصل للحقيقة بنفسي، بالرغم من وقوفي حائراً أمام كل مرحلة من

مراحل تحليلك المنطقي بانتظار أن تشرحها لي. ومع ذلك أعتقد أنّي أملك عينان توازيان قوة عينيك.

أجاب وهو يجلس على أحد الكراسي: بالضّبط، أنتَ ترى لكنّك لا ترى كما أرى. والفرق في هذه الحالة واضح، فأنت مثلاً رأيتَ الدّرجات التي تؤدي إلى هذه الغرفة من القاعة في الأسفل.

- بشكلٍ متكرِّر.
- كم مرّة تقريباً؟
- حسناً، مئات المرات.
- وكم عددها؟
- كم عددها؟! لا أعرف!

- بالضّبط، أنت رأيت لكنّك لم ترَ بعيني التي تنتبه لكَ شيء وهذا يوضِّح لكَ ما أقصده. فأنا أعرف أنّ هناك سبعة عشر درجةً لأنّني رأيتُ وانتبهتُ في الوقت نفسه. بالحديث عن القضايا البسيطة، وبما أنَّكَ مهتمٌ بها ولأنّك كنت جيداً بما يكفي لتسجيل ونقل واحدة أو اثنتين من خبراتي المتواضعة وتجاربي، فقد تكون مهتمّاً بالقضية التّالية. ثمَّ تناول ورقة سميكة ورديَّة اللّون عن الطاولة، وناولني إياها قائلاً: لقد وصلتني هذه بالبريد قبل قليل، أرجو أن تقرأها بصوتٍ عالٍ.

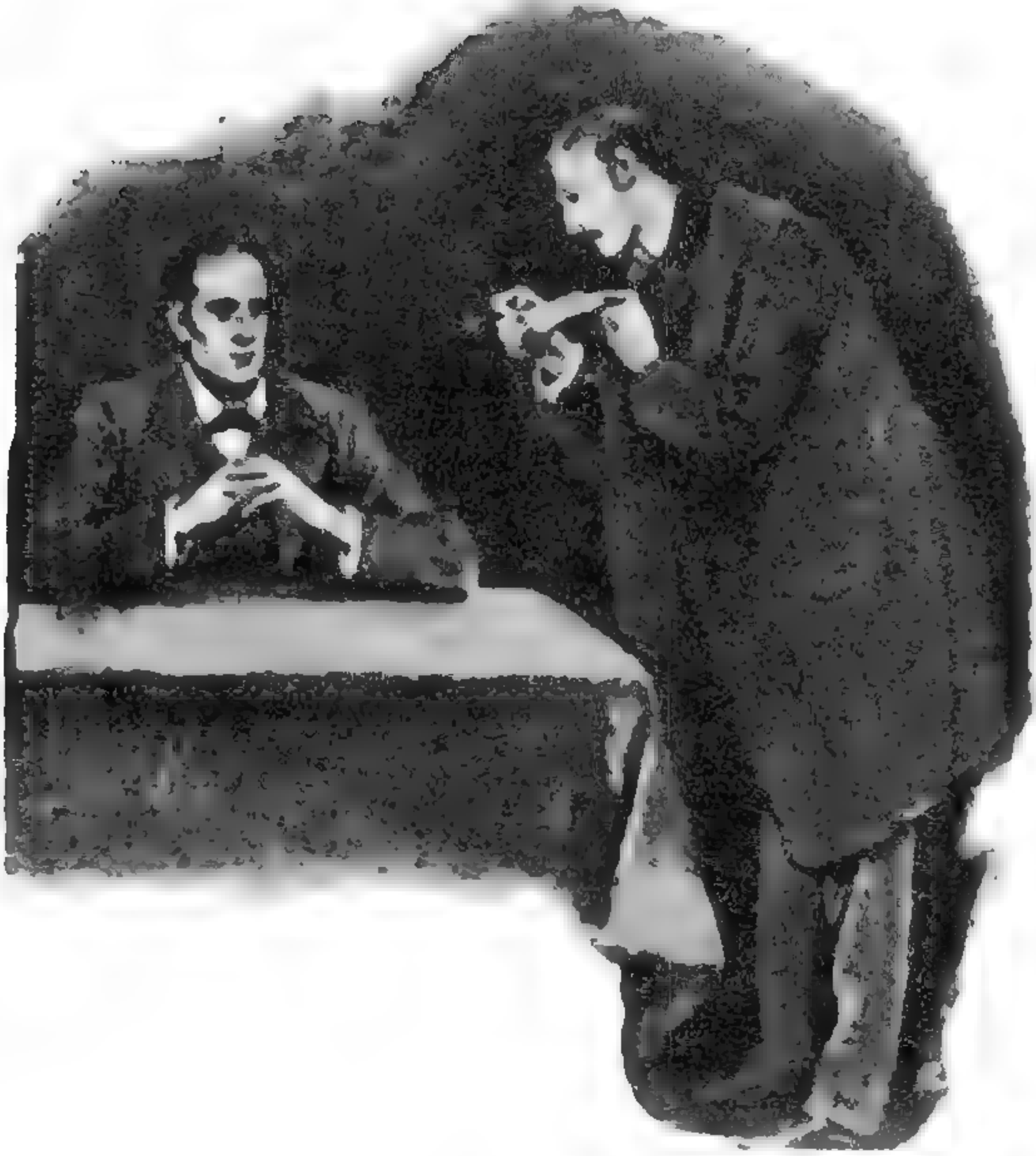
الرِّسالة القصيرة لم تكن مؤرّخة ولم تكن مذيلة بتوقيع أحد أيضاً، كما أنّه لا يوجد عليها عنوان المرسل وقد ورد فيها ما يلي:

سوف يزورك اليوم في السّاعة الثَّامنة إلا ربع مساءً رجل محترمٌ طالباً رأيك في مسألة على درجة كبيرةٍ من السريّة، بعد أن أظهرتَ أنّك موضع ثقةً نتيجة خدماتكَ التي قدّمتها إلى إحدى العائلات المالكة في أوربا، ويُمكن ائتمانك على الأسرار الخطيرة، لذلك يجب أن تكون بمنزلكَ في الموعد وألا تنزعج إذا ارتدى زائرُكَ قناعاً كي لا تتعرّف عليه.

فعلّقت بالقول: إنّه لغز حقّاً! ماذا تعني هذه الرِّسالة برأيك؟

- لا أملك أدنى فكرة عن الموضوع حتّى الآن. من الخطأ بناء النَّظريات قبل الحصول على المعلومات، إذ نقوم عندها وبشكل لا شعوري بتحوير الحقائق لتتناسب مع وجهة نظرنا بدلاً من حدوث العكس. لكن ماذا عن الرِّسالة بحد ذاتها؟ ماذا يمكن أن تعرف منها؟

تفحّصتُ الخط والورقة بعنايةٍ، ثمّ قلتُ محاولاً تقليد طريقة صديقي: يبدو من كتب الرِّسالة ميسوراً، فمثل هذا النّوع من الورق لا يمكن شراءه بأقل من نصف كراون للرّزمة، إنّه ورق متين وصلب أكثر مما ينبغي.



قـال هولـمز: أكثر مما ينبغـي.. هذا وصـفٌ دقيقٌ تمامـاً، فهذا ليـس ورقـاً انكليزيـاً أبـداً. ارفعـه إلى أعـلى ناحية الضّـوء. بعد أن رفعـت الورقـة رأيت حـرفي (غ و ي) في زاويـةٍ، وحرفي (أ و غ) في الزّاويـة الأخـرى، كانت تلـك الحروف كالعلامـة المائيّة، موجودةٌ داخل جسم الورقة.

سأل هولمز: ما الذي تفهمه من ذلك؟

- إنّه اسم صانع الورق بدون شك، أو الحروف الأولى من اسمه لتوخي الدِّقة.

- لا ليس ذلك، ليس ذلك أبداً. إنّ حرفي (غ و ي) يشيران إلى كلمة «غيزيلزشافت» الألمانية ومعناها شركة، وهذا اختصارٌ معروف. أمّا حرفي (أ و غ)، أعتقد أنّه يجب أن نبحث في أطلس أوروبا الجغرافي لمعرفة أي بلد يشيران إليه.

ثمّ جلب من أحد الرفوف مجلّداً بنيّاً كبيراً، وقال وهو يقرأ فيه: إغلو، إغلونيتز... آه ها هي، أغريا. إنّها إحدى المقاطعات النّاطقة بالألمانيّة وهي تقع في بوهيميا بالقرب من كارل سباد الشّهيرة بوجود العديد من مصانع الزّجاج والورق فيها كما يقول الأطلس. حسناً، ماذا تفهم من ذلك؟ قال هذا ولمع بريق الانتصار في عينيه حين استنتجتُ بالقول: إنّ هذا الورق مُصنّع في بوهيميا.

- بالضَّبط، كما أنّ كاتب الرِّسالة ألماني، ألا تلاحظ غرابة تركيب جُمَلِهِ؟ لو كان فرنسيّاً مثلاً لما كتبها بهذه الطّريقة، فالألماني فقط هو من يكتب بهذا الأسلوب الفظ. بقي لنا أن نعرف ماذا يُريد هذا الألماني الذي يكتب على ورقٍ فاخر مصنوع في بوهيميا، ويفضِّل ألا نرى وجهه. آه، إذا لم أكن مُخطئاً، ها هو قد جاء ليُخلِّصنا من حيرتنا.

وفيما كان هولمز يختم كلامه، سمعنا صوت ضربات

أقدام الحصان على الشّارع وصرير عجلات العربة، ثم قُرع الجرس بعنفٍ نوعاً ما، فصفّر هولمز وقال: إنّهما اثنان حسب وقع الحوافر. ثمّ تابع بعد أن نظر من النّافذة: نعم، عربةٌ صغيرةٌ أنيقة يجرها حصانان أصيلان ثمن الواحد منهما مائة وخمسين جنيهاً! في هذه القضية كثير من المال يا واطسون.. حتّى لو لم يكن فيها شيء آخر.

- أعتقد أنّه يجب أن أغادر.

- على الإطلاق أيها الطّبيب، ابق حيث أنت، فسوف أضيع إذا لم تُسجل أنت سيرتي ومغامراتي، وهذه القضية تبدو مثيرة للاهتمام وسيكون من المؤسف ألا تكون حاضراً لتسجيلها.

- ولكن ماذا عن عميلك والسريّة..

- لا تشغل بالك به، أنا قد أحتاج لمساعدتك بالفعل كما قد يحتاجها هو أيضاً. ها قد وصل، اجلس على ذلك الكرسي المُريح يا دكتور وانتبه جيِّداً للحوار الذي سيدور بيننا.

سمعنا صوت خطوات ثقيلة وبطيئة تصعد الدَّرج ثمَّ تَعبِر الرَّواق لتقف على باب الغرفة وبعد ذلك سمعنا طرقاً حازماً على الباب فقال هولمز: تفضّل.

دخل رجلٌ طويلٌ لا يقل طوله عن 195 سم، وجسده مثل هرقل قوي البنية بشكلٍ واضحٍ! كانت ملابسه فخمة وأنيقة،

لكن ليس بالنِّسبة للذّوق الانكليزي، فقد ارتدى معطفاً ثقيلاً ووضع على كتفه وشاحاً أزرق غامق من الحرير مثبتاً عند الرقبة بدبوس عليه حجرٌ ثمينٌ، أمّا حذاؤه الأقرب للجزمة، فكان مُزيناً بفراء بني أكّد لنا مدى ثراء ضيفنا. كان يحمل بيده قبعة عريضة ويضع قناعاً أسوداً يخفي عينيه وجزء من وجهه.

كان واضحاً أنّه قد وضعه مع دخوله إلى الغرفة، لأنّه أنزل يده عن وجهه مع دخوله الغرفة. وبدا من الجزء السفلي من وجهه أنّه صاحب شخصيّة قوية بشفةٍ غليظةٍ وذقنٍ طويلةٍ ما يوحي بأنّه شخص عنيد.

سأل بلكنةٍ ألمانية مميزة جداً وبصوت أجش منخفض: هل وصلتكَ رسالتي التي أخبرتُكَ فيها بقدومي؟

ثمّ أخذ ينظرُ إلى كلٍ منا محتاراً لمن يوجه حديثه، فقال هولمز: تفضّل بالجلوس. هذا صديقي وزميلي الدّكتور واطسون الذي يساعدني في بعض القضايا أحياناً. هل يمكنني أن أعرف مع من أتشرّف بالحديث؟

- يمكنك مخاطبتي على أنّني الكونت فون كرام من نبلاء بوهيميا. أتصوّر أنّ السيد المحترم صديقك لديه من الأخلاق ما يُمكِّنه من كتم الأسرار الهامّة للغاية، وإذا لم يكن الأمر كذلك فإنّي أفضِّل الحديث معك على انفراد.



نهضتُ منزعجاً وهممتُ بالمغادرة، فأمسك هولمز ذراعي وقال بلهجةٍ حازمةٍ: إمّا نحن الاثنان أو لا أحد! يمكنك أن تقول أمام هذا السيد المحترم كل ما تريد قوله لي.

هزّ الكونت كتفيه العريضين وقال: إذن لا بد أن تلتزما الآن بكتمان ما سأُفشيه لكما تماماً لمدّة عامين، فبعد تلك المدة لن يكون

للأمر أهميةٌ تُذكر، أمّا في الوقت الرّاهن فليس من المبالغة بشيء إذا قلت لكما أنّه قد يؤثّر على تاريخ أوربا بأسرها.

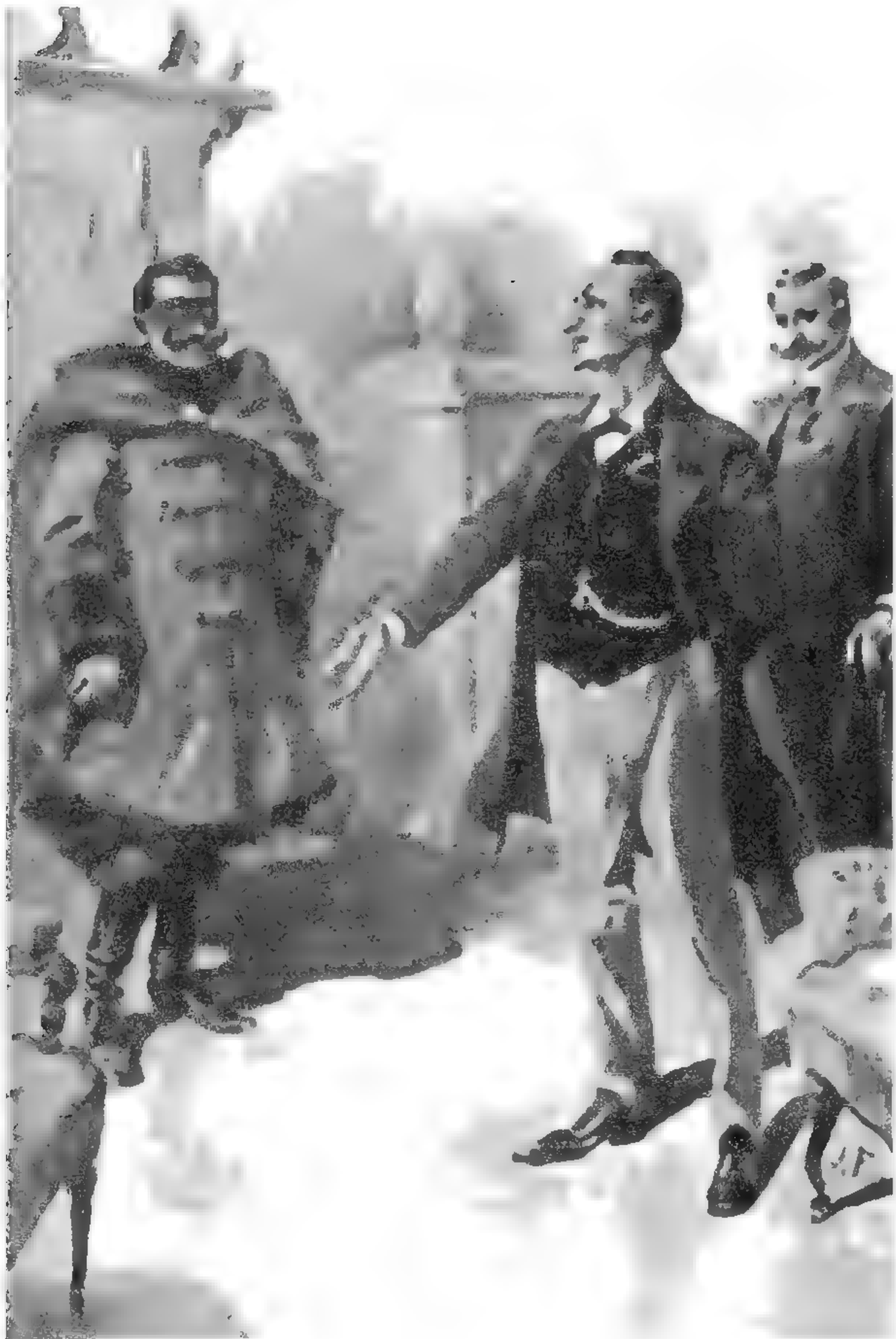
قال هولمز: نعدُكَ بذلك. وكذلك فعلتُ أنا.

تابع الزّائر الغريب قائلاً: أرجو أن لا تنزعج لوضعي قناع على وجهي، فالشّخصية الكبيرة التي استخدمتني يود أن أبقى مجهولاً بالنِّسبة لك، ويجب أن أعترف لكَ بأنّ اللّقب الذي أطلقتُه على نفسي ليس حقيقياً أيضاً.

أجاب هولمز ببرود: أعرف ذلك.

- إنّ القضية على درجةٍ عاليةٍ من الحساسيّة لذلك لا بُد من اتِّخاذ كل الإجراءات الممكنة حتّى لا نحصل على فضيحةٍ ضخمةٍ تعرِّض سمعة إحدى العائلات الأوربية الحاكمة للعار. بصراحةٍ أكثر الأمر يعني عائلة أرومشتاين العظيمة، العائلة الحاكمة في بوهيميا.

فقال هولمز بصوتٍ منخفض وهو يغمض عينيه: كنت أعرف ذلك أيضاً. ارتسمت الدّهشة على وجه زائرنا لتعليق زميلي المتكاسل وبدأ يُدرك أنّه يقف أمام أقوى مُحقّقي أوروبا فعلاً. فتح هولمز عينيه ثانيةً ونظر بنفاذ صبرٍ إلى الغريب الضّخم وقال: لو تمكّنتَ حضرتك من إخباري بالموضوع حتّى أستطيع مساعدتك بشكلٍ أفضل.



نهض الرّجل عن كرسيه وأخذ يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً بانفعالٍ، ثمّ نزع القناع عن وجهه وألقى به أرضاً وقال: أنت محق.. لماذا أحاول إخفاء الأمر؟

غمغم هولمز قائلاً: فعلاً، لماذا؟ فقد أدركتُ قبل أن تبدأ الكلام أنّي أتحدث مع ويليام غوتسترايخ سيغموند فون أورمشتاين، ملك بوهيميا والدوق الأعظم لكاسل فيلشتاين.

قال زائرنا الغريب وهو يجلس مرّةً أخرى ويمسح جبينه بكفه العريض: يمكنك أن تتفهم... يمكنك أن تتفهم أنّني غير معتاد على أداء مثل هذه المهام بنفسي. لكن الأمر دقيقٌ جدّاً، لذلك لا يمكن لي أن أثق بأحد في هذا الشأن دون أن أكون تحت رحمته. لذلك أتيتُ من براغ للحصول على مشورتك.

قال هولمز بتكاسل: استشرني إذن.

- إنّ الوقائع وباختصار هي أنّه منذ نحو خمس سنوات وخلال زيارةٍ طويلةٍ إلى وارسو تعرّفت بمغامرة شابة اسمها آيرين آدلر... أعتقد أنّ هذا الاسم مألوفٌ بالنّسبة لك.

فقال هولمز متمتماً: أرجو أن تبحث عن اسمها في دليلي يادكتور. فقد كان هولمز يصنِّف بنظام خاص كل القضايا والمقالات التي تتعلّق بالأشخاص أو الأشياء ما يجعله على مقدرةٍ لمراجعة أي شيء عن أي شخص أو شيء قرأ عنه،

تعامل معه أو درسه. وقد وجدت سيرة آيرين بين ملفين لرجل دين وضابط في البحرية.

قال هولمز: دعني أرى الملف. آه، أجل، ولدت عام 1858، مغنية الأوبرا الأولى في الأوبرا الملكية في وراسو، اعتزلت الغناء وتعيش في لندن حالياً. حسناً، أعتقد أنّك قد كنت على علاقة معها وكتبت لها بعض رسائل الحب المثيرة للشبهة، وأنت الآن مستعد لفعل أي شيء مقابل استعادة تلك الرّسائل.

- بالضّبط، لكن كيف عر....؟

- هل تورطت معها بزواجٍ سري؟

- لا.

- هل يوجد بحوزتها أوراق أو شهادات رسمية؟

- لا.

- أنا لا أفهم كيف ستتمكن إذن من ابتزازك بخطابات غير رسمية أو موثقة؟!

- من خط يدي.

- هذا غير مقبول، هذا هراء، يمكن الطعن بأنّ الخط مزوّر.

- كما أنّ الأوراق مقطوعة من مذكّراتي الشّخصيّة.

- يمكنك القول أنّها سُرقت.

- وماذا عن ختمي الخاص؟

- نقول أنّه تمّ تقليده.

- وصورتي.

- تمّ شراؤها.

- لقد كنا معاً في الصُّورة.

- آه، يا إلهي! هذا سيءٌ للغاية! أنت في ورطةٍ كبيرةٍ.

- لقد كنت كالمجانين، بلا عقل.

- لقد وضعتَ نفسك موضع شبهة سيئة.

- كنت ولياً للعهد في ذلك الوقت. لقد كنتُ يافعاً وليس كما الآن في الثّلاثين من عمري وعاقل بما يكفي.

- يجب العمل على استعادتها.

- علمت على ذلك لكني فشلت.

- يجب أن تشتري الصورة منها بأي ثمن.

- إنّها ترفض البيع.

- يجب سرقتها إذن.

- لقد تمت خمس محاولات سرقة ضدّها، فقد فتّش لصوصاً استأجرتُهم بيتها بكل دقّةٍ، ومرة استولوا على أمتعتها الشخصية أثناء سفرها وهاجمها قطّاع طرق مرتين

لنفس السبب، لكن دون جدوى.

- ألم تعثر للصورة على أثر؟

- أبداً.

ضحك هولمز وقال: يا لها من مشكلةٍ بسيطةٍ وطريفةٍ.

فردّ عليه الدوق مؤنِّباً: لكنّها مسألةٌ خطرةٌ للغاية بالنِّسبة لي.

- إنّها مشكلة خطيرة فعلاً. ماذا تريد تلك المرأة أن تفعل بالصورة.

- إنّها تريد تدميري.

- لكن كيف ذلك؟

- أنا على وشك الزّواج.

- هذا ما سمعته.

- سأتزوج ابنة ملك إسكندنافيا الثّانية كلوديت لوثمان ساكس ميننغن. ربما تعرف تقاليد عائلتها الصّارمة، كما أنّها هي نفسها رقيقةٌ جدّاً، لذلك إذا ظهر أي شيء يشوب شخصي أو تصرفاتي سواء في الماضي أو الحاضر فلن يتم هذا الزّواج.

- وماذا عن آيرين آدلر؟

- لقد هدّدت بإرسال الصور إلى تلك العائلة، وأنا متأكّد أنّها ستفعل ذلك. أنت لا تعرفها، فهي صاحبة تصميم

وعنيدة. إنّها تملك أجمل وجوه النّساء، لكنّ عقلها يضاهي أكثر عقول الرجال تصميماً وعناداً، وليس هناك حد لما يمكن أن تفعله طالما أنا سأتزوج امرأةً أخرى.

- وهل أنت متأكّد أنّها لم تُرسل الصور بعد؟

- نعم، متأكّد.

- لماذا؟

- لأنّها قالت بأنّها سترسلها عند إعلان خطوبتي رسمياً، وهو يصادف يوم الاثنين القادم.



قال هولمز متثائباً: حسناً إذن، لدينا ثلاثة أيام. نحن محظوظون، يجب أن أتحقّق من أمرٍ أو اثنين حالياً. وبالطبع يمكنني أن أتصل بك هنا في لندن، أليس كذلك؟

- بالتأكيد، ستجدني في فندق لانغهام أنزل هناك تحت اسم الكونت فون كرام.

- سأطلعك على التّطورات برسالةٍ قصيرةٍ.

- أرجو أن تفعل، وسأبقى حتى ذلك الوقت بانتظارك على أحر من الجمر.

- حسناً، وماذا عن المال؟

- لك مطلق الحرية، اختر الرقم الذي يناسبك.

- ليس هناك حد أقصى؟

- أؤكد لك أنّي مستعدٌ للتّنازل عن إحدى مقاطعاتي لقاء الحصول على تلك الصورة.

- وماذا عن النّفقات الحاليّة؟

أخرج من معطفه حقيبةً جلديّة ثقيلة ووضعها على الطّاولة قائلاً: يوجد هنا ثلاثمائة جنيه ذهبية وسبعمائة ورقية.

حرّر هولمز إيصالاً بالمبلغ وقدّمه للرجل، ثمّ سأل قائلاً: وما هو عنوان الآنسة؟

- إنّها تقيم في بيت يدعى بريوني ويقع في شارع سيربينتاين.

سجّل هولمز العنوان ثمّ قال: بقي لدي سؤالٌ واحدٌ، هل حجم الصورة كبير أم صغير؟

– من الحجم الكبير الذي يُعلّق على الجدران.

– حسناً، أتمنّى لك قضاء ليلةٍ هانئةٍ، وأنا على ثقة بأنّنا سنحمل لك أخباراً سعيدةً في القريب العاجل.

ثمّ توجّه بالحديث لي قائلاً: وليلة سعيدة لك أيضاً يا واطسون. ثمّ أضاف عندما انطلقت العربة الفاخرة حاملة صاحبها: أرجو أن تأتي بعد ظهر الغد في الثّالثة لأناقش هذه القضية البسيطة معك.

وبالموعد المحدّد في السّاعة الثّالثة، كنتُ في شارع بيكر في اليوم التّالي لكنّ هولمز لم يكن قد عاد بعد، وأخبرتني مالكةُ المنزل أنّه كان قد غادر بعد الثّامنة صباحاً بقليل. على كل حال، جلستُ أنتظره قرب المدفأة غير آبهٍ بالوقت، فقد شدّتني القضية كثيراً رغم أنّها لم تكن غامضةً أو غريبة كالجرائم التي رافقت هولمز بحلّها، إلا أنّ طبيعة القضية ومكانة المعني بها جعلتها قضيّةً مميّزة. كما أنّي أستمتع بطريقةٍ عمل صديقي على قضاياه، ومتابعة طرقه الدّقيقة السّريعة لحل القضايا الأكثر تعقيداً، وقد اعتدتُ على نجاحه الدّائم لدرجة أنّ احتمال الفشل لم يعد يخطر ببالي.

كانت الساعة قد قاربت الرابعة حين فُتح الباب ودخل منه سائسٌ يترنح كالمخمور. كان وجهه أحمر وملابسه ممزقة وشعره مشعّث. ورغم أنّي معتاد على تنكّر صديقي ومعرفته رغم التّنكر، إلا أني استغرقت بالنّظر إليه ثلاث مرات حتى عرفت أنّه هو بهذه الهيئة الغريبة!

أشار بيده ثمّ اختفى داخل غرفة النّوم وخرج بعد خمس دقائق بزيه الوقور المعتاد. وضع يداه في جيوبهِ وجلس بقرب المدفأة، ثمّ أخذ يضحك بقوّةٍ لدقائق، ثمّ صاح أخيراً: جيّد... الأمر حتّى الآن جيدٌ حقّاً! ثمّ غصّ وعاد للضّحك مجدّداً مستلقياً بظهره على كرسيه، فسألته: ما الأمر؟

- الأمر مضحكٌ جداً. أنا متأكّد أنّك لن تحزر كيف أمضيتُ صباحي اليوم، وماذا فعلتُ في النّهاية.

- لا أستطيع أن أتخيّل، فأنا أفترض أنّك كنتَ تراقب وتدرس عادات الآنسة آيرين آدلر وربما تتعرّف على منزلها.

قال: بالضّبط، لكنّي خرجتُ بنتيجةٍ غير اعتياديّة. سأُطلِعُك على الأمر بكل الأحوال. لقد غادرتُ المنزل بعد الثّامنة صباحاً بقليل متنكراً بزي سائس خيل عاطل عن العمل، فالذين يعملون مع الخيول يتعاطفون مع بعضهم بشكلٍ رائع، لذلك يساعدك تنكرك بزي أحدهم على معرفة أشياء كثيرة مهمة. لقد وجت منزل بريوني بسهولة، وهو

منـزلٌ صغـيرٌ بطابقـين مشرفـين عـلى الشّـارع مبـاشرةً وحديقة خلفيـة. عـلى البـاب قفـلٌ ضخـمٌ وعـلى اليمـين غرفـة جلوس واسـعة ومفروشـة بعنايـة، ونوافذهـا كبـيرةٌ جـداً وطويلة ذات مقابـض إنكليزيّـة مـن النّـوع السـخيف الـذي يسـتطيع طفـلٌ فتحـه! لم يكـن في الجهـة الخلفيـة مـا يسـتحق الاهتـمام سـوى مـكان وطريقـة فتـح ودخـول المنزل عـبر النّافـذة، والـذي يقع فـوق حظـيرة العربـة. تجوّلـت حـول المـكان وتفحّصـتُ المنزل بعنايـةٍ دون ملاحظـة مـا يلفـت الانتبـاه. ثـمّ مشـيتُ مُتسـكِّعاً حتّـى نهايـة الشّـارع فوجـدتُ كـما توقعـت، مجموعـةٌ مـن الإسـطبلات في ممـر يمتـد عـلى طـول أحـد جـدران الحديقـة. قمـتُ بمسـاعدة سـائسي الخيـل في تنظيـف خيولهـم فمنحـوني بنسـين ولفافتـي تبـغ خشـن، إضافـةً إلى كل مـا أردتـه مـن معلومـات عـن الآنسـة آدلـر، كل مـا يتعلّـق بنصـف دزينة من الأشـخاص القاطنـين بالجوار والتـي اضطررتُ للاسـتماع إليها رغم عدم أهميتها لي.

فسألته: وماذا عن آيرين آدلر؟

فقـال: لقـد قلبـت هـي حـال الرجـال هنـاك رأسـاً عـلى عقـب! إنّهـا أجمـل نسـاء هـذه المدينـة عـلى مـا يبـدو، فهـذا مـا يجمـع عليـه كل من في إسـطبلات سـيربينتاين بلا اسـتثناء. إنّها تعيـش بهـدوءٍ وتُغني في الحفلات الموسـيقية حيث تغـادر المنزل

يومياً في الخامسة وتعود في السّابعة تماماً لتناول العشاء، ومن النّادر أن تغادر منزلها في أي توقيتٍ آخر باستثناء وقتُ الغناء. ولا يزورها في منزلها سوى رجلٌ واحدٌ يتردَّد عليها كثيراً. إنّه رجلٌ جذّاب جدّاً وأسمر ووسيم. إنّه يزورها يومياً مرّة على الأقل، وفي أغلب الأحيان يزورها مرّتين. اسمه السيد غودفيري نورتن من إينرتمبل. هل عرفتَ الآن كم هي مفيدة رفقة سائقي عربات الأجرة؟ لقد أوصلوه من إسطبلات سيربنتاين إلى منزله مرَّاتٍ كثيرةٍ فعرفوا عنه الكثير. بعد أن استمعتُ إلى ما لديهم من معلومات رحتُ أذرع الشّارع ذهاباً وإياباً بالقرب من بريوني مرةً أخرى مفكِّراً بالطّريقة المناسبة لتنفيذ خطّتي. صمت هولمز قليلاً ثم تابع قائلاً: كان من الواضح أنّ غودفيري نورتن أحد العناصر الهامّة في المسألة. عندما عرفتُ أنّه محامي توجّستُ شرّاً، فما العلاقة الممكنة بينها وبين محامي؟ وما هدف زيارته المتكرّرة لها؟ هل هي واحدةٌ من زبائنه أو عملائه أم هي صديقته؟ فإذا كان الاحتمال الأول صحيحاً، من المرجّح أنّها تحتفظ بالصورة معه، أمّا إذا كان الاحتمال الثّاني هو الصّحيح، فالصورة لا زالت بحوزتها على الأرجح. سوف يحدِّد جواب هذا السؤال وجهةُ بحثي. هل سأحوم حول بيتها في بريوني أم سأصب اهتمامي على منزل المحامي في إنرتيمبل. لقد

كانت نقطة مفصليّة في القضية، فقد أسهمت بتوسع مجال التّحقيق. أرجو أن لا أكون قد تسبّبتُ لكَ بالضّجر والملل نتيجة سرد كل هذه التّفاصيل المُملّة، لكن كان لابد لي سردها حتّى تكون بصورةٍ واضحةٍ مما أفعل.

قلت: بالعكس، أنا أتابع ما تسرده عليَّ بانتباهٍ شديدٍ.

فتابع قائلاً: وفيما كنت أفكّر بالاحتمالين وأقلّب المسألة كلّها في رأسي، تقدّمت عربة أجرة صغيرة مسرعةً في الشّارع وتوقّفت أمام منزل بريوني، لينزل منها سيدٌ محترم. كان شاباً وسيماً تماماً ذا بشرةٍ سمراء، كان واضحاً أنّه نفس الشخص الذي سمعت عنه باكراً هذا اليوم. كان يبدو مستعجِلاً حيث طلب من سائق العربة انتظاره، ثمّ اندفع إلى الدّاخل متجاوزاً الخادمة التي فتحت له الباب ما يوحي بأنّه يعرف المنزل جيّداً ويزوره كثيراً. بقي في الداخل قُرابة النّصف ساعة، استطعتُ خلالها أن ألمحه في الدّاخل وهو يمشي ذهاباً وإياباً في الغرفة ملوّحاً بيديه بعصبيةٍ أمّا هي فلم أتمكّن من رؤيتها. عندما خرج كان يبدو مضطرباً أكثر من السّابق، فصعد إلى العربة، ثمّ نظر باهتمامٍ إلى ساعته الذّهبية التي سحبها من جيبه وصاح: هيا اذهب بأقصى سرعةٍ ممكنةٍ. سنتوّجه أولاً إلى محل غروس وهانكي في شارع ريغيت ثمَّ نذهب بعد ذلك إلى كنيسة القديسة مونيكا في شارع

إيدغواير، وسأعطيك نصف جنيه إن تمكَّنتَ من القيام بذلك خلال عشرين دقيقة.

وفيما كنت أتساءل إذا كان من الأفضل لأن أتبعه أم أبقى هنا، انطلقت العربة مسرعةً، ثمّ جاءت من الجهة الأخرى من الشارع عربةً أنيقةً ذات سقف متحرِّك يرتدي سائقها معطفاً نصف ويضع وشاحاً على رقبته. وما أن توقّفت العربة أمام منزل بريوني حتّى اندفعت السيدة مسرعةً إليها فلم ألمحها إلا لماماً، لكنّها كانت كفيلة لأعرف أنّها امرأةً فاتنة بكل ما للكلمة من معنى، لها وجهٌ قد يجعل أي رجل يُضحِّي بكل ما يملك من أجله، حتّى بحياته! وصاحت قائلةً: إلى كنيسة القديسة مونيكا يا جون، وسوف أمنحك نصف جنيهاً ذهبيّاً إذا تمكّنت من الوصول إلى هناك خلال عشرين دقيقة.

عندها لاحت لي فرصةً ذهبيّة لدخول المنزل لكنّي سارعت إلى أول عربة أجرة وقفزتُ داخلها دون أو أسمح لسائقها الاعتراض على مظهري، وقلتُ له: سأمنحُك نصف جنيه ذهبي إذا أوصلتني خلال عشرين دقيقة إلى كنيسة القديسة مونيكا.

كانت الساعة الحادية عشرة وخمس وثلاثين دقيقة، وبالطّبع ما يحدث كان واضحاً بما فيه الكفاية. قاد سائقي العربة بسرعةٍ كبيرةٍ، بحيث لم أعتقد أنّي ركبت عربة سارت بمثل هذه السرعة، لكنّ الرجل والمرأة وصلا قبلي، فقد

وجـدتُ العربتـين تقفـان أمـام بـاب الكنيسـة عندمـا وصلت. دفعـتُ الأجـرة وأسرعـت بالدخـول. لم أجـد بالدّاخـل أحـداً سـواهما ورجـل ديـن يرتـدي ثـوب كاهـن وبـدا أنّـه يتجـادل معهما وقد اجتمع ثلاثتهم في مقدِّمة الكنيسة قرب المذبح.



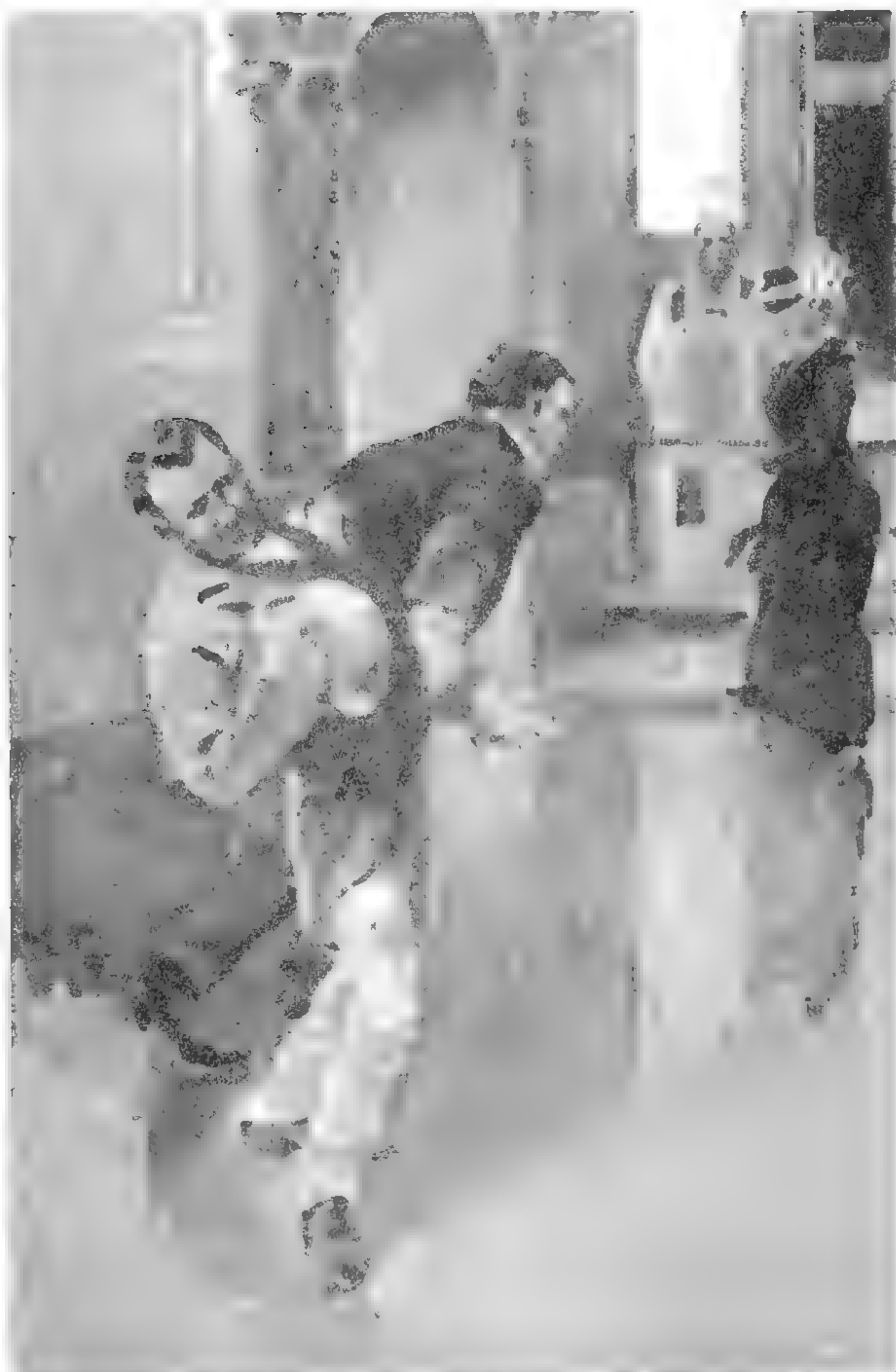
ورحت أمشي في الممر الجانبي كأي فقير يتسكّع في الكنيسة، ثمّ فجأة ولدهشتي، استدار الثّلاثة نحوي ثم ركض غودفيري نورتن باتجاهي وهتف قائلاً: الحمد لله، سوف تفي بالغرض. تعال، هيا.

سألته: ما الأمر؟!

- تعال أيها الرجل. تعال فقط لثلاث دقائق وإلا لن يكون الأمر قانونياً.

ثمّ أخذني إلى حيث تقف المرأة والقس، وقبل أن أفهم الموقف وجدتُ نفسي أردِّد كلمات لقّنها لي القس وأشهد بأشياء لا أعرف عنها شيئاً. باختصار كنت أشهد على زواج آيرين آدلر و غودفيري نورتن! انتهى كل شيء خلال لحظات، وشكرني الاثنان فيما ابتسم القس لي ابتسامةً عريضةً!

كان ذلك واحدٌ من أغرب المواقف التي واجهتها في حياتي، وما يدعوني إلى الضَّحك الآن هو التّفكير فيه! حيث كان يبدو أنّ عقد زواجهما بحاجةٍ إلى بعض الشكليات! فقد رفض القس إتمام مراسم الزواج دون شاهد. وهكذا كنتُ أنا الشّاهد على زواجهما بحيث لم يضطر العريس للجري في الشارع باحثاً عن واحد عندما وجدني داخل الكنيسة. لقد منحتني العروس جنيهاً ذهبيّاً أنوي الاحتفاظ به كتذكار.



حينها قلتُ ضاحكاً: لقد جرت الأحداث بشكلٍ غير متوقّع، ماذا سيحدث بعد ذلك برأيك؟

قال: حسناً، يبدو أنّ مخططاتي سوف تفشل فشلاً ذريعاً، حيث يبدو أنهما قد يغادران بسرعة، وهذا يجبرني على القيام بإجراء فعّال وسريع في آن. على كل حال لقد افترقا ما أن خرجا من الكنيسة حيث توجّه هو إلى إنرتمبل، فيما ذهبت هي إلى منزلها. حين ودّعته قالت: سأخرج بنزهةٍ في العربة الساعة الخامسة كالمعتاد.

لم أسمع المزيد، فقد ذهب كل منهما في اتجاهٍ مختلف فيما ذهبتُ لأقضي بعض الأمور الضّرورية.

- وما هي تلك الأمور؟

أجاب وهو يقرع الجرس: بعض اللحم البارد وكوب من الحليب، فقد كنت مشغولاً طوال النهار بحيث نسيت الطّعام. وسوف أكون على الأرجح مشغولاً جداً هذا المساء. بالمناسبة يا دكتور، قد أحتاج إلى مساعدتك.

- يسرني مساعدتك.

- ألا تمانع إذا كان في ذلك خرقاً للقانون.

- لا مانع لدي على الإطلاق!

- حتّى لو أدى الأمر لإلقاء القبض عليك؟

- ليس إن كان السبب جيداً.

- السبب أكثر من جيد.

- إذن، أنا تحت أمرك.

- كنتُ متأكِّداً أنّه بإمكاني الاعتماد عليك.

- لكن ماذا تريد أن تفعل؟

قال وهو ينظر إلى الطعام الذي أحضرَته صاحبة المنزل بنهم جائع: بالرغم أنّ السيدة تيرنر قد أحضرت الطعام ويجب أن آكل، إلا أنّي سأوضح لك الأمر الآن، لأني لا أملك ما يكفي من الوقت. إنّ الساعة الآن حوالي الخامسة ويجب أن نكون في موقع الحدث بعد حوالي الساعتين، لأنّ الآنسة آيرين، أو بالأحرى السيدة آيرين الآن، ستعود من نزهتها في السابعة، ويجب أن نكون باستقبالها في بريوني، منزلها.

- وماذا بعد ذلك؟

- يجب أن تدع هذا الأمر لي. لقد رتّبتُ كل شيء وكل ما سوف يحدث. لكن هناك أمراً واحداً يجب أن أُشدِّد عليه وهو أنّه يجب ألا تتدخّل أنت مهما حدث، هل تعدني بذلك؟

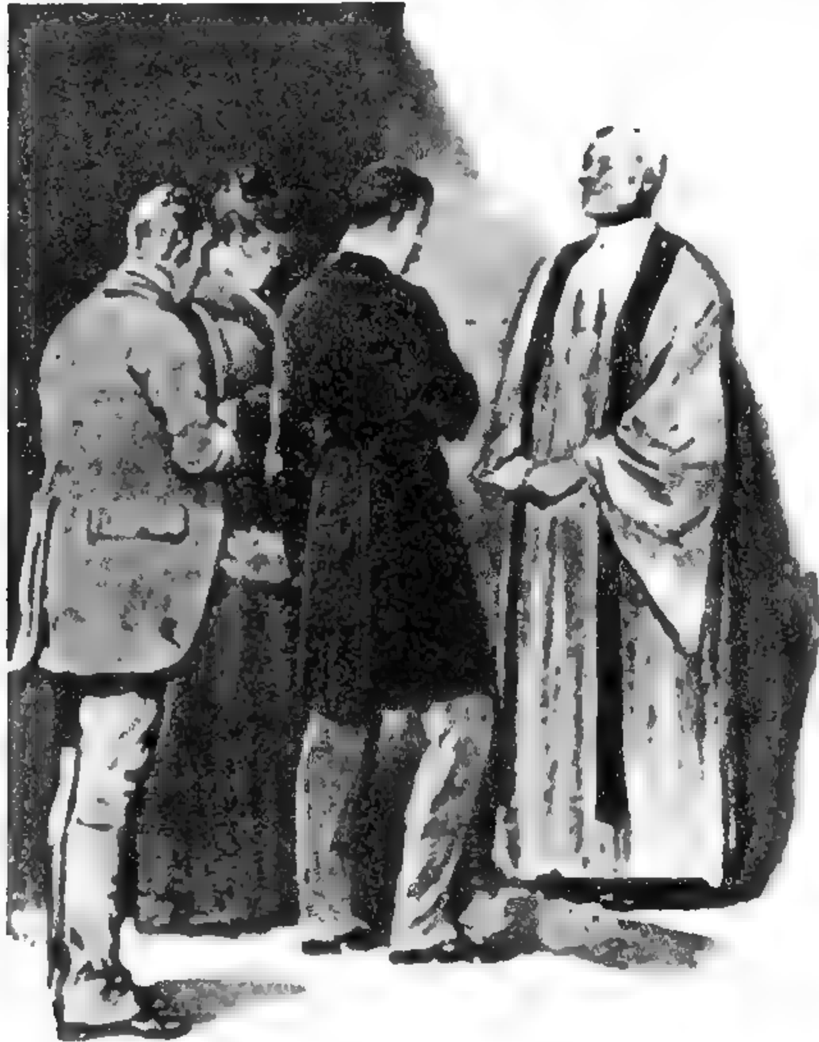
- هل يجب أن أبقى على الحياد؟

- يجب ألا تقوم بأي تصرف مهما كان تجاهي. من المحتمل أن تحدث بعض المضايقات، فلا تتدخّل. ستنتهي تلك

المضايقـات بنقـلي إلى داخـل منزلها، وبعـد ذلك بأربـع أو خمس دقائـق سـوف يتـم فتح نافـذة غرفـة الجلـوس حيث سـأكون. يجب أن تقف تحت تلك النّافذة.

– ثم ماذا؟

– عليـك أن تراقبني حيث سـأكون في مجـال رؤيتك. عندما أرفـع يـدي بهذا الشـكل، وقـام بحركـةٍ معيّنـة، سـتُلقي الشّيء الـذي سـأعطيكَ إيّـاه لاحقـاً في الغرفـة عـبر النّافـذة المفتوحة، وستصرخ في الوقت نفسه أنّ هناك حريقاً. أتفهمني؟



- تماماً!

قال وهو يخرج لفة من جيبه: إنّها ليست شيئاً مؤذياً، مجرّد أداة تُصدر فقط الدّخان ويستخدمها عمّال السباكة. لقد تم تركيب غطاء فيه صاعق على طرفيه حتّى يصبح ذاتي الاشتعال. هذه هي مهمتكَ فقط، فعندما تطلق صرخة الإنذار بالحريق سيُردّدها عددٌ كبيرٌ من النّاس بعد ذلك. عندها عليك الذّهاب إلى الشارع الآخر حيث سألحق بك بعد قليل.

- إذن يتوجّب عليَّ البقاء على الحياد، الاقتراب من النّافذة لمراقبتك، وعند الإشارة أُلقي بهذه اللفافة وأصرخ حريق ثم أذهب إلى الشارع الآخر لانتظاركَ هناك.

- بالضّبط.

- يمكنكَ أن تعتمدَ عليّ في هذا.

- ممتاز، يجب الآن أن أعد نفسي للدّور الجديد الذي سألعبه.

دخل هولمز غرفة النوم ليعود بعد دقائق بزي قس لطيف وساذج. كان يرتدي بنطالاً واسعاً وربطة عنق بيضاء وعلى رأسه قبّعةً سوداء عريضة. رسم على وجهه ابتسامة تعاطف وكان شكله العام يوحي بالنّبل وحب الخير. إنّ تنكر هولمز لم يكن مجرد ملابس، فقد كان يتقمّص الشخصية التي يرتدي

ملابسـها بـكل تفاصيلهـا. وأعتقـد صادقـاً أنّ عـالم التّمثيـل والمسرح خسر فناناً حقيقياً بتوجه هولمز إلى عالم الجريمة.



في السادسة والربع مساءً، غادرنا غرفتنا في شارع بيكر. حين وصلنا إلى شارع سيربينتاين كان لدينا عشر دقائق قبل الموعد، وقد غابت الشمس وكانوا يضيئون مصابيح الشّارع فيما كنا نروح ونجيء أمام منزل بريوني بانتظار السيدة التي تقيم فيه. كان المنزل كما تخيّلته تماماً عبر وصف هولمز الدّقيق. أمّا الشارع فقد بدا أقل خصوصية وأكثر ازدحاماً مما توقّعت. فقد كان مليئاً بالحركة بشكل ملحوظ بالرغم من صغره ووقوعه بمنطقةٍ هادئةٍ. كان هناك عددٌ من الرجال بملابس بالية يدخنون ويتحدثون في إحدى الزوايا وشخص يضع عجلة شحذ السكاكين والمقصّات في مكانٍ آخر، فيما يتسكّع في الشارع عدد كبير من الشبان المتأنقين.

قال هولمز فيما كنا نمشي: إنّ زواجهما سلاحٌ ذو حدين برأيي. إذ يمكن أن يكون حرص السيدة على عدم رؤية غودفيري نورتن الصورة بمقدار حرص عميلنا على عدم وجود الصورة، أو أن تراها خطيبته الأميرة. السؤال الهام الآن: أين الصورة؟

– فعلاً، أين يمكن أن تكون موجودة؟

– من المستبعد أن تحمل الصورة معها، لأنّها صورةٌ كبيرةٌ كما علمنا ولا يمكن لها أن تُخفيها تحت ثيابها خصوصاً مع علمها أنّ الدوق قد يأمر رجاله بإيقافها في الشارع وتفتيشها

في أي لحظـة. لقـد حاول هذا مرتـين بالفعل سـابقاً. إذن يُمكننا الاعتماد على أنّها لا تحملها معها.

– أين هي إذن؟

– إمّـا مـع المحامي أو مع المـصرفي الذي تتعامل معـه. لكنّي أعتقـد أنّهـا مـا كانت لتضـع وثيقـةُ بهذه الأهميـة مـع أي منهما، لأنّ النّسـاء عمومـاً يُفضِّلـن الكتـمان وبقاء مثل هـذه الأمور في إطـار مـن الغمـوض. ولمـاذا تضـع الصـورة مـع أي شـخصٍ آخـر؟ إنّهـا لا تثـق إلا بنفسـها لحراسـتها إضافةً إلى أنّها سـوف تسـتخدمها في الأيـام القليلـة القادمـة، لذلـك لابد أنّهـا تضعها في مكانٍ قريب من متناول يدها. لابد أنّ الصورة في منزلها.

– لكنّ المنزل تعرّض للسطو مرّتين دون نتيجة!

– هراء! لم يعرفوا أين يبحثوا عنها.

– لكن كيف ستبحث أنت؟

– أنا لن أبحث.

– ماذا ستفعل إذن؟

– سأجعلها ترشدني إلى مكان الصورة!

– لكنّها سترفض.

– لن تسـتطيع الرّفض. إنّي أسـمع صـوت عجلات عربتها. الآن عليك أن تفعل ما قلته لك.

ظهر الضوء الجانبي لإحدى العربات وهي تنعطف عند زاوية الشّارع فيما كان يتكلّم، وحين وصلت العربة أمام منزل بريوني أسرع أحد الشبان في الشّارع لفتح بابها أملاً بنيل قطعةً نقديّة مقابل ذلك، لكن متسكع آخر قام بدفعهِ بعيداً بكوعه ليسرع كي يحل محلّه فشب صراعٌ بينهما تطور بشكل أكبر مع تدخل الحارسين اللّذين كانا يقفان بجانب المتسكعين، في حين نهض الذي كان يشحذ السكاكين وانضم للشجار هو أيضاً. وفي لحظة أصبحت السّيدة التي نزلت من العربة وسط المشاجرة العنيفة. أسرع هولمز ليخترق الحشد من أجل حماية السيدة لكن ما أن وصل إليها حتّى صرخ وسقط على الأرض فيما الدّم يسيل على وجهه بغزارةٍ!

هرب الحارسان والمتسكعان كلٌ في اتجاه حال سقوط هولمز، فيما بقي البعض ممن لم يشتركوا بالشجار لمساعدة السيدة ومعالجة الجريح. أسرعت آيرين آدلر بصعود الدّرج إلى منزلها، لكنّها توقّفت في أعلى الدرج المؤدي للمنزل واستدارت في الضّوء لتبدو كما هي فاتنة ثم سألت: هل أُصيب هذا المسكين؟

صاحت عدة أصوات: لقد مات!

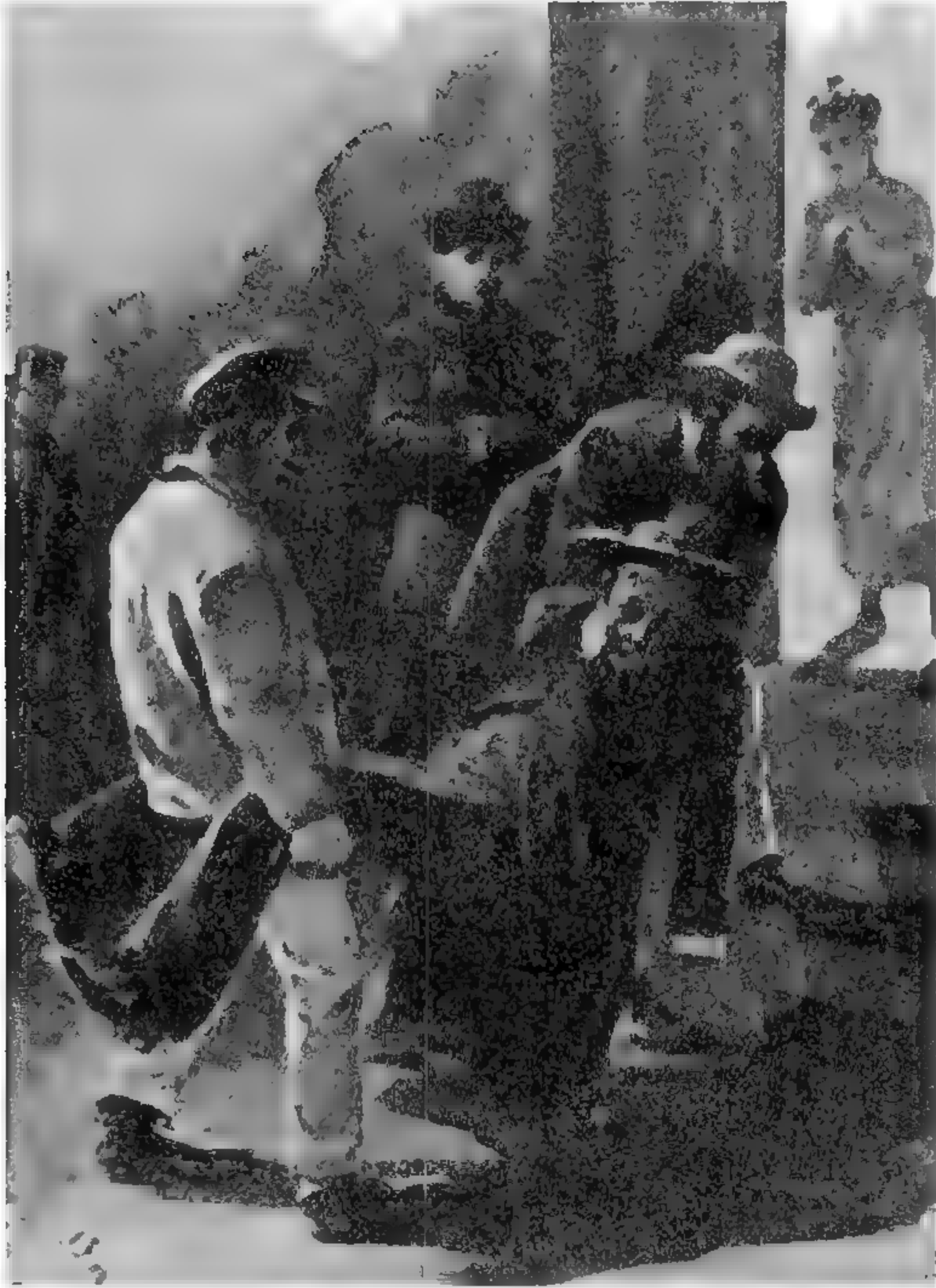
لكن آخر صاح: لا، لم يمت. إنّه على قيد الحياة، لكنّه قد يموت قبل الوصول إلى المستشفى البعيد من هنا.



قالت الامرأة، إنّه رجلٌ شجاع، إذ لولا تدخله، لتمكنوا من سرقة حقيبة السيدة وساعتها. إنّهم عصابة أشرار! آه، إنّه يتنفس الآن.

- لا يمكن أن ندعه في الشارع، أيمكننا إدخاله يا سيدتي؟

- بالطبع، أدخلوه إلى غرفة الجلوس. يوجد أريكة مريحة. من هنا لو سمحتم.



حملوه إلى داخل منزل بريوني بروية وباحترام كبير ووضعوه حيث قادتهم السيدة، في حين كنتُ أنا أراقب ما يحدث دون أن أتدخل. تمّ إضاءة المصابيح في الغرفة فيما بقيت الستائر دون إغلاق، وتمكّنتُ من رؤية هولمز وهو مستلقٍ على الأريكة، وانتابني شعورٌ من عدم الرضا لأني

ساعدته في خداع هذه المرأة الأقرب للملاك من الإنسان، حين رأيت كم تعاطفت معه، لكنّي عرفت بأنّي إذا لم أؤد الدور المطلوب مني فسيكون الأمر كالخيانة العظمى. لذلك تماسكتُ وأخرجت اللفافة التي تحوي أداة الدخان من تحت معطفي، مبرّراً عملنا على أنّه ليس العمل على إيذائها بل منعها من إيذاء أحد آخر.

اعتدل هولمز على الأريكة ورأيته يمثِّل دور كم يشعر بالاختناق، فأسرعت الخادمة لفتح النّافذة وبنفس اللّحظة رأيته يرفع يده بالإشارة المتّفق عليها فرميت اللفافة داخل الغرفة وصرخت: حريق! حريق!

لم أكد ألفظ أول مرة كلمة حريق حتّى اجتمع كل من في الشارع و بدؤوا بالصّراخ حريق! حريق!

تجمّعت سحب الدخان في الغرفة، وخرجتُ من النّافذة المفتوحة، ورأيت أشباح الموجودين في الداخل يتدافعون ثمّ سمعت صوت هولمز يأتي من الدّاخل ليطمئن الجميع بأنّه إنذارٌ كاذب ولا يوجد حريق. بعد ذلك تسلّلت من وسط الحشد وذهبتُ إلى الشارع الآخر لأنتظر صديقي هناك كما اتّفقنا. وبعد عشر دقائق كنت سعيداً عندما وضع صديقي ذراعه بذراعي لننطلق بعيداً عن الضّجة.

سار هولمز بسرعةٍ وصمتٍ لعدة دقائق حتّى انعطفنا

للسير في أحد الشّوارع الهادئة المؤديّة إلى شارع إيدغواير، ثمّ تكلّم قائلاً: لقد أديتَ دورَكَ على أكمل وجه يا دكتور، ما كان الأمر ليتم بأفضل من ذلك.

- هل الصورة معك؟

- لا، لكني أعرف أين تضعها.

- وكيف عرفتَ ذلك؟

- لقد أرشدتني هي إليها، تماماً كما أخبرتك أنّها ستفعل.

- لا زلتُ لا أفهم شيئاً.

قال ضاحكاً: لا أريد أن أُبقي هذا الأمر غامضاً بالنسبة لك بعد الآن. الأمر بسيطٌ للغاية. لقد أدركتَ بالطبع أنّ كل من شارك بالتّمثيلية التي حدثت بالشارع كان مستأجَراً من قبلي للقيام بذلك.

- هذا ما استنتجته.

- وهكذا عندما اندلع العراك لعبت لعبة قديمة حيث كان هناك بعض الطّلاء الأحمر في يدي وضعتها على وجهي ما إن سقطت على الأرض ليصبح شكلي مثيراً للشّفقة.

- هذا أيضاً فهمته.

- بعد أن تم حملي إلى الدّاخل، كانت مضطرةً للسماح لي بالدخول، فما الذي يمكن أن تفعله؟ وهكذا تم إدخالي إلى

غرفة الجلوس، وهي الغرفة التي أشك أنّ الصورة إمّا مخبأةً فيها منذ البداية أو في غرفة النوم، وكنت أنوي التّأكد فقط. قاموا بوضعي على الأريكة، وحين أشرتُ إلى حاجتي لمزيد من الهواء، قاموا بفتح النّافذة.

– وكيف ساعدك ذلك؟

– كان ذلك مُهمّاً جداً لأنّه سمح لك برمي اللفافة وإشعال الحريق. وكما تعلم عند حدوث حريق تندفع المرأة غريزياً لإنقاذ أثمن ما لديها في المكان المحترق، وهذا رد فعل قاهر قمت باختباره أكثر من مرّة سابقاً.لقد كان مفيداً جداً في قضية دارلنغتون وقضية قلعة آرنشورت، حين أسرعت المرأة المتزوجة إلى احتضان طفلها، فيما أسرعت غير المتزوجة إلى علبة جواهرها لتأخذها. وفي حالتنا هذه، تبيّن أنّ السيدة لم تكن تملك في منزلها شيئاً أثمن من الصورة وسوف تسارع طبعاً لحمايتها.

عندما صرختَ أنتَ مُنذراً من الحريق، كان الدّخان والأصوات كافيين لهز أعصاب أي إنسان. وكان رد فعلها ممتازاً، حيث عرفتُ على الفور من حركتها أنّ الصورة موجودة في تجويف في الجدار خلف لوحة معلقة في غرفة الجلوس. لقد اقتربت منها للحظة وهي تحاول سحبها من التّجويف، ورأيتُ الصورة بعيني لكنّها أعادتها إلى مكانها بعد أن قلتَ أنّه إنذارٌ كاذب ولا يوجد حريق. عندها أبقت

الصـورة في مخبئهـا وغـادرت الغرفة فـوراً، ولم أرهـا بعد ذلك. ثـمّ فكـرتُ بأخـذ الصـورة فـوراً، لكن سـائق العربـة دخل ولم يزحـزح نظـره عنـي، فقـرّرت التّريـث والحصول عـلى الصورة في وقتٍ لاحقٍ لأنّ التّهور في هذه المرحلة قد يُفسد كل شيء.

فسألته: وماذا الآن؟

- لقـد انتهـت القضيـة تقريبـاً، حيث سـأقوم بزيـارة آيرين آدلـر برفقـة الـدوق، ولا مانـع أن ترافقنـا إن أحببـت. سـوف يدخلوننـا إلى غرفـة الضيـوف لننتظـر السـيدة، ولكنّهـا قـد لا تجدنـا عندمـا تأتي كما أنّهـا لن تجد الصـورة أيضاً. كـما أنّ فخامة الدوق قد يشعر بالرضا إن استعاد الصورة بنفسه.

- ومتى ستزورانها؟

- في الثامنـة مـن صباح الغـد. لن تكون قد اسـتيقظت بعد، مـا يمنحنـا فترةً زمنيـةً كافيةً لأخـذ الصورة فيـما ننتظرها. يجب أن نُـسرع لأنّ زواجهـا مـن المحامي قـد يُحدث تغيـيراً جذرياً في حياتهـا وعاداتهـا اليوميـة، لذلـك يجـب أن أرسـل برقيّـةً إلى الدوق على وجه السرعة.

كنـا قـد وصلنـا إلى شـارع بيكـر وتوقفنا عنـد بـاب المنزل، وفيـما كان هولـمز يبحث عـن مفتـاح البيت لندخل مرّ شـخصٌ بجانبنـا وقـال: أتمنّـى لكَ ليلةً سـعيدة يا سـيد شـارلوك هولمز.

كان هنـاك العديـد من الأشـخاص في الشـارع في ذلـك الوقت، لكـن مـن ألقى تحية المسـاء علـى هولمز كان شـاباً نحيـلاً يرتدي معطفـاً طويـلاً، وقد أسرع بالانـصراف بعد إلقـاء التّحية، فقال هولـمز وهو ينظر إلى الشـارع المعتم: لقد سـمعت هـذا الصوت من قبل، إني أتساءل من يكون هذا الشخص؟



قضيت الليلة في مسكن هولمز. وفي الصباح وفيما كنا نتناول القهوة وشرائح الخبز، دخل الغرفة ملك بوهيميا ليمسك هولمز من كتفه ويصيح به: هل حصلت عليها فعلاً؟

- ليس بعد.

- لكنّك ستحصل عليها؟

- أرجو ذلك.

- هيا بنا إذن. أنا لا أطيق انتظاراً.

- يجب أن نستأجر عربة.

- لا، إنّ عربتي بالانتظار تحت.

- هذا يجعل الأمر أسهل.

نزلنا وانطلقنا باتجاه منزل بريوني، وقال هولمز: إنّ آيرين قد تزوجت.

- تزوجت؟! متى؟

- البارحة.

- لكن ممن؟

- من محامي انكليزي اسمه نورتن.

- لكنّها لا يمكن أن تحبه.

- أتوقّع أنّها تحبه وعندي أمل أن تكون كذلك.

- ولماذا هذا الأمل؟

- لأنّ ذلك سيبعد مشاكلها عنك في المستقبل. إذا كانت السيدة تحب زوجها فهي لا تحبك إذن، وإن كانت لا تحبك فلا سبب لديها لتحاول النيل منك بعد الآن.

- هذا صحيح، لكن على الرغم من ذلك... حسناً، كنت أتمنى لو أنّها من نفس الطبقة الاجتماعية التي أنتمي إليها، حينها كان يمكن أن تكون دوقة لا نظير لها.

قال ذلك ودخل في صمتٍ عميق وكئيب استمر حتّى وصولنا إلى شارع سيربينتاين. كان باب منزل بريوني مفتوحاً تقف عند بابه سيدة مُسنّة، كانت المرأة تراقبنا بنظرةٍ ساخرةٍ فيما كنا ننزل من العربة وقالت: أنت السيد شارلوك هولمز على ما أعتقد؟

هزّ صديقي رأسه بالإيجاب وهو ينظر إليها بنوعٍ من الشّك أو الشك الممزوج بالخوف. وأضافت العجوز: لقد أخبرتني سيدتي أنّها تتوقّع زيارتك، وقد غادرت هي وزوجها في قطار الخامسة والربع المنطلق من محطة تشرينغ كروس متوجِّهاً إلى أوروبا.

تراجع هولمز إلى الخلف فيما لون وجهه تحوَّل إلى الأصفر لشدة المفاجأة وقال: ماذا؟!! هل تعنين أنّها غادرت إنكلترا؟

- ولن تعود أبداً.

سأل الدوق بصوت متحشرج: هل هذا يعني ضياع جميع الوثائق؟

صاح هولمز: لنرى ونتأكّد. ثمّ اندفع متجاوزاً الخادمة إلى الدّاخل واتّجه نحو غرفة الجلوس وتبعته أنا والدّوق. كان أثاث الغرفة مبعثراً وكل ما فيها في حالة فوضى كاملة، كما لو أنّ السيدة كانت مستعجلة جداً أو هاربة من أمر ما. أسرع هولمز إلى مكان تعليق اللّوحة وأزاحها وأدخل يده في الجدار فسحب صورة وخطاباً. كانت الصورة لآيرين نفسها بملابس السّهرة الرسمية، فيما الخطاب كان موجهاً إلى شارلوك هولمز حيث كُتب عليه: (السيد المحترم شارلوك هولمز. يبقى الخطاب في مكانه حتّى يأتي السيد هولمز لاستلامه.)

فتح صديقي الخطاب وقرأناه معاً. كان مؤرَّخاً بتاريخ ليلة أمس وقد كُتب فيه:

عزيزي السيد هولمز،

لقد أديتَ دورك بشكلٍ رائع جدّاً وتمكّنتَ من خداعي، فحتى لحظة إطلاق إنذار الحريق لم أَشعر بأدنى شك نحوك، لكن بعد ذلك وعندما اكتشفتُ أنّك عرفتَ سري بدأت أفكر. لقد حذَّروني منك منذ عدة شهور وأخبروني أنّه إذا استخدم الدُّوق

محقِّقٌ خاص فسوف يكون هذا المحقق أنت بالتّأكيد، كما أنَّهم أعطوني عنوانك. وبالرغم من ذلك فقد أجبرتَني بحيلتكَ الرائعة على كشف ما تريد معرفته. وحتّى بعد أن ملأ الشك قلبي، وجدتُ صعوبة تصديق أنَّ قس لطيف عجوز قد يُخبئ هولمز تحت تنكُّره، لكن كما تعرف فأنا قد تدرَّبتُ على التمثيل كما أنَّ التَّنكر مسألةٌ بسيطةٌ بالنسبة لي، بل إنّي أتنكر بأزياء الرجال أحياناً لتحقيق بعض الأهداف. وهكذا فقد أرسلتُ سائقي جون ليراقِبُك وأسرعت إلى الطابق العلوي لأرتدي ملابس النزهة أو ملابس المشي، فهذا الاسم الذي أطلقه عليها، ثمّ نزلت فيما كنت تغادر. تبعتُك بعد ذلك حتّى باب منزلكَ فتأكّدتُ أني كنت محور اهتمام المحقق الشهير شارلوك هولمز، بعد ذلك تمنّيت لك ليلةً سعيدة وتوجّهت إلى إنرتمبل لرؤية زوجي حيث اتّفقنا على أنَّ أفضل الحلول يتمثل بالفرار من عدو رهيب كصديقك الدوق، لكن ستجد العش بلا عصافير عندما تقرأ هذه الرسالة.

أمّا بخصوص الصورة، أرجو أن تُطَمئِن عميلك فأنا أحب رجلاً أفضل منه وهو يبادلني الحب. أنا أحتفظ بالصّورة على سبيل الحماية من الدوق إذا فكّر بأي اعتداء ضدي. وقد تركتُ لكَ عوضاً عنها صورة أخرى لي قد يرغب الدوق بالاحتفاظ بها.

أرجو أن تتقبّل خالص التّقدير والاحترام يا عزيزي

السيد شارلوك هولمز.

المخلصة آيرين آدلر.

صاح الدوق: يا لها من امرأة... يا لها من امرأة! ألم أقل لك كم هي سريعة بديهة وحاسمة؟ أليس من المؤسف أنّها ليست من نفس الطبقة الاجتماعية التي أنتمي أنا لها ؟!

قال هولمز ببرود: لقد تبيّن لي فعلاً مما رأيته من تصرُّفات السيدة أنّها فعلاً لا تنتمي إلى نفس المستوى الذي أنت فيه يا سمو الدوق! أنا آسف لأني لم أتمكّن من إنهاء قضيتك بالنّجاح الذي كنتَ ترغب به.

صاح الدوق: على العكس يا سيدي العزيز، على العكس، لا شيء أكثر نجاحاً مما حققته. أنا أعرف تماماً أنها تحترم وعودها، وهكذا فإنّ الصورة الآن بأمان كما لو أنّها احترقت ولم يعد لها أثر.

- أنا سعيدٌ لسماع ذلك.

- أنا مدينٌ لك بشدة. أرجو أن تخبرني كيف أستطيع مكافأتك؟ هل يصلح هذا الخاتم كمكافأة؟

وانتزع الدوق من أصبعه خاتماً من الزمرد على شكل أفعى، ووضعه براحة كف هولمز المفتوحة، فقال هولمز: لدى سموك ما هو أكثر قيمةً بالنسبة لي.

- ليس عليك سوى طلبه.

- هذه الصورة.

نظر الدوق إليه بذهولٍ وقال: صورة آيرين؟! بالتّأكيد.. إنّها لك إذا كانت هذه رغبتك.



أشكرك يا صاحب السمو. لقد انتهت هذه القضية ويشرفني أني عملت عليها لأجلك، وأتمنى لك صباحاً سعيداً. ثم انحنى احتراماً واستدار خارجاً وانطلقنا كل باتجاه منزله.

وهكذا انتهت قصة الفضيحة الكبرى التي هدَّدت سمعة مملكة بوهيميا، وكيف تغلّب دهاء المرأة على خطط شارلوك هولمز الذي اعتاد على المزاح بامتداح ذكاء النساء أو السخرية من ذلك، لكنّه أصبح حين يأتي ذكر آيرين آدلر أو عندما يشير إلى صورتها يستخدم دائماً تلك التّسمية الموحية «المرأة»!.

• انتهى •